السيطرة الغامضة: السياسة • الخطاب • والرموز في سورية المعاصرة

ليزا وادين

ترجمه عن الإنجليزية: نجيب الغضبان

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٠. ٣٥٨ صفحة.

لا نعرف أسماء أولئك الشبان الذين أسقطوا أول تمثال، ومزقوا أول صورة، أكانت للرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، أم لابنه الرئيس الحالي بشار الأسد، خلال انتفاضة سورية في سنة ٢٠١١، لكن التاريخ سيسجل لهم أنهم نجحوا في تحطيم أسطورة عمرها نحو أربعين عاماً. فقد شكلت ظاهرة تقديس عائلة الأسد أحد أهم معالم النظام في سورية منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي، وفي هذا السياق يشكّل كتاب ليزا وادين الذي صدر في سنة ١٩٩٩ بالإنجليزية بعنوان: *Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric and Symbols in Contemporary Syria*، ثم صدر بترجمة موفقة، بشكل عام، لنجيب الغضبان إلى العربية في سنة ٢٠١٠، نقلة نوعية في تحليل النظام السوري المعاصر.

لقد انحصرت أغلبية الدراسات التي صدرت في الأوساط الأكاديمية الغربية بشأن سورية إمّا بالتحليل "المادي" أو الاقتصاد السياسي أكان التقليدي أم الماركسي،[١] وإمّا بالسرد التاريخي الذي يركز على السياسة الداخلية والعلاقات الدولية،[٢] وإمّا بالتحليل الطائفي، الثقافي، الاستشراقي السطحي الذي ينطلق من وجهة نظر رجعية وحتى صهيونية.[٣] أمّا كتاب وادين فهو الأول من نوعه عن سورية الذي يركز على الخطاب السياسي ويعتمد منهج "ما بعد الحداثة"، ذلك بأن وادين تستشهد بأعمال لويس ألتوسير وميشال فوكو بصورة خاصة. وعلى الرغم من أهمية هذا المنهج، فإن له حدوده المعرفية أيضاً كما سأبين لاحقاً.

يشكل استقرار السلطة في سورية منذ الحركة التصحيحية معضلة لدى المحللين، وخصوصاً وادين، إذا ما قورن بتاريخ سورية الحافل منذ الاستقلال بالانقلابات. وفي هذا السياق ترى وادين أن التحليل المادي التقليدي للنظام السوري، والذي يركز على المصالح أو المؤسسات، غير كاف لتفسير "لماذا تنفق الحكومة السورية مبالغ باهظة من المال وموارد مادية نادرة لصياغة الرموز" (ص ٤٣) بدلاً من إنفاقها على الخدمات أو حتى على القمع؟ وتنطلق وادين بتفسيرها من تساؤل بسيط هو: كيف نفسر ظاهرة التبجيل والتقديس لحافظ الأسد، والتي تتضمن إطلاق الصفات شبه الإلهية على مقدرته وذكائه، هو "العالم بكل شيء"، وفي الوقت نفسه نعلم بأن الأغلبية العظمى من السوريين لا تصدق هذا الكلام؟

جواب وادين هو أنه ليس مهماً بالنسبة إلى النظام السوري أن يصدق المشارك أو المتفرج أو المستمع، تلك العروض وأغاني المديح المبجلة للنظام، فالكل كان

(١) انظر الكتب التالية:

Hanna Batatu (1999), *Syria's Peasantry: The Descendants of its Lesser Rural Notables, and Their Politics* (New Jersey: Princeton University Press); Fred Lawson (1999), *Demystifying Syria* (London: Saqi Books); Raymond Hinnebusch (2007), *Syria: Revolution from Above* (U.K. Taylor and Francis).

(٢) انظر: باتريك سيل (١٩٩٩)، "الأسد: الصراع على الشرق الأوسط" (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر).

(٣) انظر: Daniel Pipes (1992), *Greater Syria: The History of an Ambition* (U.S.A.: Oxford University Press).

يعلم بأن الأسد لم يكن فعلاً "الصيدلي الأول"، لكن ما يهم النظام هو أن يتصرف الجميع "كما لو" أنهم يصدقون.

وترى وادين أن هناك ثغرة تحليلية لدى العلماء السياسيين (المختصين بسورية أو غيرها) تتعلق إمّا بتهميش دور البلاغة الإنشائية والرموز في تدعيم السلطة، وإمّا بادعاء أنهما تحديداً، هما اللتان تضفيان شرعية على النظام. وجوهر كتاب وادين هو أن للنظام السوري "استراتيجية قائمة على المطاوعة بدلاً من الشرعية" (ص ٤٥)، وإن يكن مضمون الكتاب أكثر تعقيداً من ذلك. فهي تعترف بأن النظام لا يحظى بـ "شرعية فيبرية" (نسبة إلى ماكس فيبر الذي تحدث عن الإيحاء بقوة خاصة لشخصية القائد/ "الكاريزما")، ولا يتبع "الهيمنة الغرامشية" (نسبة إلى أنطونيو غرامشي الذي تحدث عن احتواء المخيلة الفكرية بطريقة يتقبل فيها المواطن شرعية النظام)، وذلك لوجود سرّ بين الناس يتعلق بازدراء المجتمع بالهالة الملقاة على الأسد، وسخريته من أكاذيب النظام. لكن وادين ترى أن كلمة "شرعية" ليست "قاطعة"، وهو ما يعني أنها (الشرعية) ليست الأمر الذي يحظى به النظام أم لا، وإنما هي "حزمة من الاعتقادات والالتزامات الشعورية المعقدة والمتناقضة أحياناً" (ص ٨٣).

لذا ترى وادين ـ وهنا تتبع منهجية الماركسي الفرنسي لويس ألتوسير ـ أن ثمة علاقة جدلية بين الممارسة والأيديولوجيا، وذلك من خلال تحليل "مادي" للرمز والخطاب، عبر مجموعة الاستعراضات والحفلات والأناشيد والتظاهرات المنظمة لإظهار الولاء وتكريس الألقاب الإلهية، والتي تستنتج وادين أنها كلها تساهم في جعل المواطن يعتقد أن قوة الأسد غير نابعة من صفاته الإلهية، وإنما "لأن نظامه قادر على إكراه الناس على أن يكرروا ما يثير السخرية ويجاهروا بما لا يقبله العقل" (ص ٥٤). وتنتهي الكاتبة بالادعاء أن نظام الأسد أوجد نوعاً من المطواعية غير محدد في علم الاجتماع (إلى أن حددته وادين) يتمثل في "الانضباطية الرمزية" (ص ٢٩٦)، أي، باختصار، ينجح النظام في السيطرة على تصرفات المواطن لأنه لا يستطيع السيطرة على أفكاره.

وبحسب وادين، فإن لهذا الأسلوب من السيطرة ثمناً يدفعه النظام، وهنا، ثمة ملاحظة مهمة تتعلق بالترجمة. فقد سبق أن ذكرت أن الترجمة موفّقة بشكل عام، نظراً إلى صعوبة المصطلحات والأفكار المطروحة، إلاّ إن اختيار المترجم كلمة "غامضة" لترجمة مصطلح "Ambiguities" الذي يرد في عنوان الكتاب، هو أمر غير موفق، إذ كان من الأصح استخدام كلمة "مُلتبَسة"، لأن وادين تريد القول إن هالة التقديس، على الرغم من نجاحها، تولّد نقيضها، علاوة على أساليب مقاومتها. ولعل أفضل مثال لما تعنيه وادين يمكن تلخيصه بقصة الضابط "ميم" الذي ضُرب وسُرِّح من الجيش بعد زيارة ضابط ذي رتبة كبيرة أمر ميم ورفاقه بأن يقصّوا عليه أحلامهم في الليلة الفائتة. وعندما وصل الدور إلى ميم، تقدم وقال: "لقد رأيت في منامي أمي عاهرة في غرفة نومك" (ص ١٧٢). إن ميم يستخدم مصطلحات النظام التي تؤكد خنوع المواطن وتلبّي متطلبات الرياء، لكنه يعيد ترتيبها بطريقة تُطيح بها بدلاً من تعظيمها.

وتخصص وادين بقية الكتاب للتعمق في مثل هذه الأفكار المتعلقة بالالتباس. فالقسم الثاني يتابع تطور ظاهرة التقديس التي تحتوي على متناقضات مثل "فارس الحرب" و"رجل السلام"، وهنا تلاحظ الكاتبة أن الظاهرة ترتفع وتيرتها خلال التغيرات السياسية، وخصوصاً في أثناء الأحداث التي ربما تُحرج النظام مثل دخول لبنان في سنة ١٩٧٦، أو مشاركة النظام إلى جانب الولايات المتحدة في حرب الخليج الثانية، ثم سقوط الاتحاد السوفياتي، والذي رافقه جو هستيري من التزلف، وسط إجراء استفتاء، الأمر الذي أدخل مصطلح "المبايعة" في التداول اليومي، فبدأ النظام عملية التوريث بالحديث عن القائد "أبي باسل".

وترى وادين أن مفعول ظاهرة التقديس ثلاثي الأبعاد: ١ـ الحاجة الدائمة إلى إظهار الولاء تساهم في

"قتل السياسة"؛ ٢ـ الكذب المنظم يربك أولئك الذين يخضعون له، ويقوِّض قدرتهم على الفعل؛ ٣ـ بدلاً من النقاش السياسي المتحدي للنظام يتحول النقاش العلني إلى منافسة بشأن التملّق. وعندما تجتمع الأبعاد الثلاثة يصبح المواطن مستبطناً من دون وعي للخطاب الرسمي حتى لو اعتقد في داخله أنه غير متأثر به.

في القسم الثالث من الكتاب تستشهد وادين بمسرحيات مثل "ضيعة تشرين"، وبالنكات الشائعة، وببرامج التلفزيون ورسوم الكاريكاتور كي تسجّل التجاوزات اليومية لهالة التقديس، فتقول إن من الخطأ التركيز على الطاعة العلنية مع إهمال المقاومة اليومية التي تشمل الفنانين والأشخاص العاديين في الوقت نفسه. فكل مرة يقول فيها مواطن لنفسه: "لن أفعل ما تأمرني به"، أو إن "النظام كله فاسد وكاذب"، يكون قد قاوم الانصياع الكامل. وترى وادين أن هذه الأمور، على الرغم من صغر حجمها، تتراكم مع مرور الزمن وربما تؤدي ـ كما أدت في أوروبا الشرقية ـ إلى إسقاط النظام.

نقاط نقدية

أولاً، وكما أشار آخرون، فإن أفكار وادين مستوحاة بشكل كبير من الكتابات عن أوروبا الشرقية. فالفكرة الرئيسية التي تقول إن ما يهم النظام ليس اقتناع الناس بالأيديولوجيا السائدة، وإنما بتصرفهم "كما لو" أنهم يصدقون، هي فكرة منقولة عن كتاب فاكلاف هافيل (قوة مَن لا قوة لهم) بشأن الحياة اليومية في تشيكوسلوفاكيا السابقة. فهناك أيضاً كان البقال يضع عبارة "عاشت الاشتراكية" كما هي الحال في سورية حيث تشيع عبارات مثل "بالروح بالدم" كدرع يرتديه البقال أو سائق التاكسي للتغطية على التجاوزات، وللصد من تطاولات الأمن، لكن، في نهاية المطاف، لا يعرف القارئ ما هي خصوصية النظام السوري بالتحديد.

ثانياً، اتضح بعد الانتفاضة السورية أمران: أولاً أن للقمع وحاجز الخوف تأثيراً ودوراً أكبر من الاهتمام الذي أولتهما إياه وادين، فمع انكسار حاجز الخوف في بلاد عربية بما فيها سورية، انتفضت الشعوب على قمع شديد كانت تتعرض له، الأمر الذي يُظهر تأثير القمع سابقاً في خوف الناس وصمتهم إلى أن يحين وقت تنتفض فيه فئات واسعة من الشعب على هذا الخوف.

الأمر الثاني يتعلق بفئات أُخرى من الناس لا تنتفض، وإنما تصمت مع إضفاء شرعية ما على النظام. وتتبنى هذه الفئات مجموعة من الاعتقادات والمخاوف التي تعمل على تبرير الصمت، فتعطي مثل هذه المخاوف أولوية أكبر من أولوية رفض القمع. وربما لا تصدق هذه الفئات أكاذيب النظام كلها، ولا تصدق أن الأسد كان "الرياضي الأول"، لكنها تعدّ هذه الطقوس "شراً لا بد منه" أو "تجاوزات غير مستحبة"، وتصمت بالتالي مضفية نوعاً من الشرعية على النظام عبر استخدامها حججاً مثل القلق بشأن المقاومة، أو عدم وجود بديل من النظام، أو الخوف من الفوضى، عدا تمسك قسم منها بمصالح مادية. وما يمدّ هذا الصمت بالعون هو تزامن القمع الداخلي (والصدمة النفسية المكبوتة لمجازر حماة وتدمر وللتعذيب والوجود الأمني والإرهاب الفكري اللامنتهي) مع تغيرات إقليمية متلاحقة أو غزو إمبريالي متواصل (حرب الخليج الأولى والثانية؛ الانتفاضة الفلسطينية؛ غزو العراق؛ عدوان تموز/ يوليو على لبنان)، فيجد منطق الصمت عن القمع تبريره في مثل هذه المخاوف، ولا سيما أن سورية تواجه أخطاراً حقيقية مثل إسرائيل التي تعدّها أغلبية السوريين عدواً وجودياً وأزلياً.

صحيح أن وادين لا تنكر دور القمع، بل تقول إن القمع والتهديد به ضروريان لإنجاح هالة التقديس، لكن مَن يُسقط منهج التحليل النفسي الاجتماعي على الشعب السوري، كما تفعل وادين، عليه الالتفات إلى ما تطوره فئات الشعب السوري من تصرفات وأولويات متعددة بشأن رؤية النظام والتعامل معه بطرق متنوعة ربما تختلف بحسب الطبقة الاقتصادية أو المدينة أو البادية (أو حتى الطائفة).

لقد نجحت وادين في تحليل الخطاب السائد والفن المعارض، والتباس أو هشاشة سيطرة النظام السوري، لكنها لم تستطع أن تمد جسراً يصل بين الفكرة الأساسية عن أهداف النظام من هالة التقديس وبين المطاوعة من طرف المواطن، وهنا، نرى حدود منهج التحليل الذي يتفادى التحليل المادي التاريخي.

عمر سامي ضاحي
أستاذ الاقتصاد في جامعة هامشير في الولايات المتحدة

الممارسات الثقافية للشباب العربي

تحرير عزّة شرارة بيضون، وطفاء حمادي، مود إسطفان هاشم، نازك سابا يارد

بيروت: تجمّع الباحثات اللبنانيات، الكتاب الرابع عشر، ٢٠١٠. ٥٧٥ صفحة.

يطرح هذا الكتاب على قارئه إشكالية الخطاب البحثي العربي في مواجهة واقعه، وخصوصاً في ضوء انتفاضات العالم العربي ضد أنظمته. فالكتاب الذي أُعد خلال سنتَي ٢٠٠٩ و٢٠١٠، يجمع عدداً وافراً من الدراسات والشهادات، غير أن قلّة منها تتجاوز ضآلة التحليل وركاكة التعبير وبديهية الخلاصات (لا غرابة في أن الانتفاضات أتت على حين غرة ومن دون توقع)، كي تقدم لقارئها فهماً أوفر للتحديات التي يواجهها الشبان العرب، وللقدرات التي يمتلكونها لتجاوز الواقع الحالي. ونحن لن نتوقف مطولاً في هذه المراجعة أمام خلاصات تكرر ما هو بديهي، أو تكتفي بأدنى وصف لموضوعها، ولا أمام شهادات تكرر اللغة الموروثة والدروس الأخلاقية المزعومة نفسها، وإنما سنحاول قراءة بعض المحاور التي يشي الكتاب بها، والتي يمكن تلخيصها بتخطي قلق الهوية، واستعمال الإنترنت والشبكات الاجتماعية الافتراضية لتطوير قراءات جديدة من جانب الشباب تسمح لهم بالتفاوض بفاعلية مع محيطهم كي يتفاعلوا مع تعدد المؤثرات المحيطة بهم (ثقافياً واجتماعياً ووطنياً وطبقياً ولغوياً.. إلخ)، والتي تشكلهم، أكان ذلك رفضاً أم قبولاً.

القراءة في العالم الرقمي وشبكاته

تشير الباحثة البحرينية فاطمة علي، في مقالتها: "عطفاً على الشباب والفايس بوك وما بينهما ـ حالة البحرين" (ص ٢١٢) إلى ثلاثة عناصر قادرة على توليد الثقافة والإبداع، ويؤمّنها الفايس بوك والمجال الرقمي، هي: "الشفافية، والتشاركية، والحرية"، بحيث تنعكس هذه العناصر على ما تحتضنه صفحات الشباب في الفايس بوك من نتاجات ثقافية متنوعة، ولا يفوتها في ذلك تأكيد التفاعل مع رواد الصفحة وما بينهم، وكذلك الإشارة إلى هشاشة هذه الشبكات التي يجوز فيها محو المجموعات وما دار فيها من نقاشات وأعمال وصور بكبسة زر. وعلى الرغم من ذلك، فإن الباحثة ترى أنه لم يعد من الجائز لمؤسسات الدولة، فضلاً عن مؤسسات المجتمع المدني، تجاهل الدور الذي ربما تؤديه الشبكات الاجتماعية في تحقيق أهدافها.

علاوة على ذلك، تردّ فاطمة علي على الأفكار الرائجة التي ترى أن الشباب ينفرون من الممارسات الثقافية الجدية، فتشير إلى إحصائيات متكررة تدل على "ارتفاع نسب انتشار الكتب الإلكترونية وتداولها لدى الفئات الشابة، إضافة إلى الزيادة الملحوظة في أعداد المتابعين